تعريف بالكتاب

كان الشاعر الانجليزى فتزجيرالد يقول عن الرباعيات التى نظمها باللغة الانجليزية أنها تحويل أو تأويل لأبيات الشاعر الفارسى عمر الخيام ولم يكن يسميها ترجمة دقيقة لكلمات الشاعر الفارسى ومعانيه ، لأنه أراد بها أن يجعلها تعبيرا من عنده لفلسفة الشاعر العالم الفلكى ومذهبه فى المعيشة ، يقول فيها بعبارته الانجليزية ما يفهم منه القارىء لباب تلك الفلسفة وطوية ذلك المذهب ، ولا يدعى أنه يلتزم نصوصه ومعانيه التزام المترجم للنص الأصيل .

ولهذا أعاد فتزجيرالد نظم كثير من الرباعيات مرات وتصرف ما بين نصوصها الانجليزية تصرفا يبعدها أحيانا عن نظمها الأول ويكاد يختلف بها كاختلاف المعنى بين شاعر وشاعر أو بين مترجم ومترجم ، وقد اطلع على منظومات فتزجيرالد الأديب الفـــارسى ميرزا محمد خان القزوينى وهو على الطلاع واسع فى آداب لغته وآداب اللغات الأوروبية فقال ان فتزجيرالد « لم يتقيد باتباع الخيام وحفظ أغراضه وأداء معانيه بحيث أصبحت معرفة المعنى الأصلى ولو على سبيل الحدس فى أغلب رباعيات فتزجيرالد متعسرة وكثيرا ما بعد عن الأصل بدرجة أصبح حدس الأصل فيها محالا .. »(١) .

وقد كان مترجمو الرباعيات من الانجليزية الى العربية أقل تصرفا من ذلك كما يظهر من المقابلة بين ترجمة الأستاذ أحمد الصافى للرباعية التالية وترجمة الأستاذ المازنى للرباعية نفسها نقلا عن الانجليزية :

---

(١) خطاب القزوينى الى الشاعر أحمد الصافى النجفى مترجم الرباعيات عن الفارسية.

فالصافى يقول :

غدونا لدى الأفلاك ألعاب لاعب ... أقول مقـــالا لست فيه بكاذب
على نطع هذا الكون قد لعبت بنا ... وعدنا لصندوق الفنا بالتعاقب

والمازنى يقول :

هذه رقعـــة شطرنج الفضـــاء ... ولهـــا لونان صـــبح ومساء
ننقل الخطـــو بها كيف يشاء ... ثم تطوينا صـــناديق الفنـــاء

أو كما يظهر من المقارنة بين ترجمة الأستاذ محمد السباعى وترجمة الأستاذ عبد الرحمن شكرى لرباعية (ارم وجمشيد) عن الرباعيات الانجلـــيزية .

فالسباعى يقول :

ان يكن فردوس شـــداد ارم ... باد ، أو ابريق جمشيد انحطم
فجنـــان الكرم تزهـــو من أمم ... يسبل اليـــاقوت فيها سلسلا
كل معسول الجنى حلو الدماع

وشكرى يقول :

أرم قد عفت وصـــوّح قـدما ... فى رباهـــا الربيـــع والزهر
كأس جمشيد قد مضت حيث لاحيـــث لدينـــا ... من أمرهـــا خبر
لكن الكـرم لا يزال جـــوادا ... برحيـــق حبـــــابه درر
ولنـــا منزل من الروض فينا ... ن تروّى أزهـــاره الغـــدر

فان قارىء الترجمة العربية لا يصعب عليه أن يردها الى مكانها من رباعيات فتزجيرالد ، ولكنها لا ترد بمثل هذه السهولة الى الأصل الفارسى ولا الى الترجمة الدقيقة المنقولة عنه .

وكذلك حدث التصرف فى تركيب الرباعية فنقلها بعض المترجمين من بحر « الدوبيت » ومعناه بالفارسية « البيتان » الى مقطوعات من أربعة أبيات على بحور مختلفـــة من أوزان العروض . فان الرباعية

فى النظم الفارسى أربع شطرات وليست بأربعة أبيات ، فنقلها بعض المترجمين الى عدة شطرات تزيد على الأربع فى كثير من الأحيان .

الا أن الرباعيات ، على هذا ، يصح أن تنسب الى الخيام فى جملتها وان لم تصح الموافقة بيتا بيتا بين أصولها وترجماتها أو تأويلاتها ، فمما لا جدال فيه أنها فى الجملة تنقل مذهب الخيام فى المعيشة وتصور فلسفته فى الحياة ، فمن قرأ عشرين أو ثلاثين رباعية منها بالانجليزية أو بالفارسية أو بالعربية قال بغير تردد « نعم .. هذا هو صاحبنا الخيام وهذا هو فحوى المذهب الذى كان يذهب اليه » .

ويؤكد لنا هذا الفهم أن الشعر الذى نظمه الخيام باللغة العربية يؤدى هذا المعنى بجملته ويمكن أن يقال عنه أنه خلاصة مذهب الخيام بكل عبارة وبكل تأويل .

فهو يقول مثلا من رباعية عربية :

ألا يأيها الساقى أدر كأسا وناولها
متى ما تلق من شهوى دع الدنيا وأهملها

وهو يقول فى غير وزن الدوبيت :

اذا قنعت نفسى بميسور بلغة يحصّلها بالكد كفى وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها فكن يا زمانى موعدى أو مواعدى
اذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساع وقاعد
أليس قضا الأفلاك فى دورها بأن تعيد الى نحس جميع المساعد
فيا نفس صبرا فى مقيلك انما تخر ذراه بانقضاض القواعد

ويقول فى بيتين على غير وزن الدوبيت :

العقل يعجب فى تصرفه ممن على الأيام يتكل
فنوالها كالريح منقلب ونعيمها كالظل منتقل

وهذا هو الخيام فى جملته بغير تصرف وان اختلف التعبير عنه باختلاف التأويل والتفسير .

وقد كانت خلاصة فلسفة الخيام فى كل ما قال : « انك تسأل الحكماء وتطلع على الكتب وتراجع نفسك وتقلب كفيك فلا تهتدى الى سر للحياة غير مصيرها الى الموت ، فلا نصيب لك من الأمس الذى مضى ومن الغد الذى يضمره الغيب غير ما تغنمه من سرور ومتاع ميسور » .

وهذه فلسفة الحائر بين مضطرب الحوادث وقضايا الفكر والضمير ، يمليها زمان تتابع فيه الصدام بين المذاهب العقلية والعقائد الدينية ، واستفحل فيه النزاع بين غارات الصليبيين من المغرب وغارات التتر من المشرق ، وشاعت فيه النحل الباطنية والدعوات الاباحية ، وتبين فيه خطأ الأولين حتى فى تقدير مسالك الأفلاك والسيارات العلوية ، فكان الخيام أحد العلماء الذين اشتغلوا بتصحيح التقويم ونظروا فى ظواهر النجوم كما نظروا فى خفايا التنجيم .

وقد كان حكيم المعرة قبل جيل أو جيلين يستقبل هذا الصدام بحيرة كحيرة الخيام ، ويقول فى تعبيره عنها :

أرواحنا معنا وليس لنا بها علم فكيف اذا حوتها الأقبر

ويقول فى زهده وورعه :

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقة فتحمل شيئا من همومى وأوزارى

ويقول عن آنية الفخار التى تتقلب بين الحياة والموت :

لعل اناء منه يصنع مرة فيأكل فيه من يشاء ويشرب

وقد تكررت هذه المعانى وأمثالها فى رباعيات الخيام حتى خطر لبعض النقاد أن الخيام تلميذ أبى العلاء فى هذه الفلسفة ، لا فارق بينهما الا أن الخيام يقابل متاعب الفكر والعيش بترك الدنيا والاقبال على متاع الساعة العابرة ، وان أبا العلاء تأبى له الأنفة مع ذهاب بصره أن يتعرض للسخرية بالاقبال على المتعة العاجلة ، فيؤثر عليها أن يعكف على محبسيه وهو يتحدى اللذة والألم قائلا لمن عابوا عليه عماه :

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدى لكم يهون
والله ما فى الوجود شىء تأسى على فقده العيون

ولقد نقلت رباعيات الخيام الى الغرب فى عصر يشبه العصر الذى نظمت فيه ، فأعطته ترجمانا من الشرق يقتحم عليه حجب النفاق الذى يتوارى خلفه أصحاب الآراء ، فلا يفتح فيه ثغرة تردد النفس المكتوم حتى يهب على آفاقه كما تهب الريح ، ويجترىء من لم يكن يجترىء على الكلام ، كأنما يقول : انما العهدة على الخيام فى هذا الملام .

ولم يكن من مصادفات الجزاف أن تقع قسمة الرباعيات فى ذمة فتزجيرالد الشاعر الذى جعله « مزاجه العاطفى » يضيق بصرامة قومه ونفاق عصره فيحن الى مزاج الشعر فى أمة الفرس كما حن الى مزاج الشعر فى مسرح الأسبان ومسرح اليونان . فقد كان فتزجيرالد يحب الحياة حب العصفور المتنقل بين الجداول والرياض ويقول : « ان العصفور الحى خير من النسر المحنط » ويحس أن العصر كله يرين بأثقال الرياء الاجتماعى فلا يترجمه شعراؤه كما يترجمه صاحبه الفارسى الذى عاش على بعد مئات الفراسخ من بلاده ، وعلى بعد مئات السنين من زمانه ، فأقدم على نقله أو تأويله وهو يستتر بالاسم المستعار ، ثم ارتفع الستار فطار اسم فتزجيرالد واسم الخيام معا كل مطار .

لقد كان أناس من الغربيين يبيحون الترنم بالرباعيات لأنها رموز صوفية كما سمعوا من بعض رواتها الأقدمين ، ولكنهم يقرأونها فى هذا العصر ولا يغالطون أنفسهم فيها ، لأنهم يأخذونها على حقيقتها : وحقيقتها أنها صيحة فكر حائر قبل أن تكون صيحة جوف جائع أو كبد متعطشة ، ولعله يقنع منها بلذة الشعر وأن أكثر فيها من اللهج بلذات الطعام والمدام .

عباس محمود العقاد